من الذآـرة..

د. محمـد صـابر عـرب

لقد آان قاسم أمين استثناءًا وسط الجماعة الثقافية والسياسية مع نهايات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وخصوصًا فيما يتعلق بقضية المرأة التي أفرد لها آتابين شهيرين: "تحرير المرأة"، و"المرأة الجديدة"، ولم يلتفت قادحوه إلى عملين آخرين "المصريون" ردًا على دوق دارآور ١٨٩٤ و"أسباب ونتائج" ١٨٩٨، والكتاب الأول آتبه بالفرنسية ليقرؤه الفرنسيون ردًا على الإساءات البالغة التي ألصقها دارآور بالمسلمين وبعقيدتهم الدينية وبعاداتهم التي رآها نتاجًا طبيعيا للإسلام. وقد جاءت آراء قاسم أمين في هذا الكتاب بمثابة حوار حضاري رائع دافع فيه عن الإسلام دفاعًا لم يكن بإمكان أحد من الذين أهالو عليه التراب أن يقوموا به، وقد آان موضوعًا رئيسيا في معظم الصحف الفرنسية وقتئذ حتى فيما جاء بكتاب دارآور عن تعدد الزوجات عند المسلمين، وقد جاء رد قاسم أمين غاية في الروعة تحليلاً وتحقيقًا ووعيًا فيما يتعلق بالحكمة من تعدد الزوجات التي جعلها

الإسلام استثناء حينما اشترط العدالة، التي أكد القرآن الكريم أنها لن تتحقق «وَلَنْ تَعْدِلُوا» وهو نفس الرأي الذي قال به محمد عبده وقتئذ.

وإذا كان الإسلام قد قيد التعدد رغم إباحته؛ فقد قيد أيضًا الطلاق حينما جعله أبغض الأشياء، لكنه أباحه لنفس الضرورة أيضًا.

لقد قامت الدنيا ولم تقعد حينما نشر قاسم أمين كتابه: "تحرير المرأة"، فلقد انتزع مهاجموه جملاً منزوعة من سياقها واستنطقوا من التراث ما يعد دخيلاً على الإسلام وروحه الصافية، وراحوا يهاجمون الرجل بكل قسوة بحجة الدفاع عن الإسلام، الذي لم يكن في حاجة إلى دفاعهم، فالقرآن يدافع عن نفسه من خلال عشرات الآيات القاطعة بالحث على الحوار بالتي هي أحسن، والنهي عن البحث عما في صدور الناس، ومحاولة استنطاق ما علق بالتراث من آراء ضعيفة وفتاوى دخيلة، والابتعاد عن الإجابة عن الأسئلة الحاكمة من قبيل البحث عن سر تخلف المسلمين.

لقد كان قاسم أمين على وعي كامل بجوهر الإسلام في أصوله الصافية، وهو شيء مغاير لحال المسلمين، وقد اعتقد بأن ثمة عوامل كثيرة وراء تخلف المسلمين، في مقدمتها افتقاد المجتمع إلى دور المرأة المتعلمة باعتبارها الأساس لإعداد جيل ينهض بالأمة من كبوتها وتخلفها.

لقد راح يسوق من التاريخ الإسلامي صفحات مضيئة للمرأة المسلمة التي شاركت الرجل في كل مناحي الحياة، فهي راوية الحديث، ومسئولة عن ذمتها المالية، ومشاركة في القتال خلف الرجل تعضده وتقوي من أزره، بينما واقعها مع نهاية القرن التاسع عشر كان مأساويا من بيت وزجها أو أهلها إلى القبر.

لم يكن قاسم أمين في كل ما كتب بعيدًا عن الإسلام روحًا ومصلحة، حتى عقد الزواج الذي عرفه الفقهاء بأنه: "عقد يملك به الرجل بضع امرأة" بينما القرآن الكريم قد جعله سكينه ومودة ورحمة، قال تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً» [الروم٢١] وشتان بين مفهوم القرآن الكريم للزواج، ومفهوم الفقهاء بشأن الزواج. إنه في ثقافة الفقهاء علاقة مادية محضة، بينما هو بنص القرآن علاقة قوامها المودة والرحمة والمشاركة. لم يقل قاسم أمين بمنع التعدد، بل أكد أن الإسلام قد أباحه كسائر أنواع الحلال الذي تعتريه الأحكام الشرعية من المنع والكراهة وفق ما يترتب عليه من المفاسد والمصالح.

لقد لاحظ قاسم أمين كثرة الطلاق وما ينجم عنه في أحيان كثيرة من تشريد للأبناء وانهيار لكيان الأسرة، وقد أخذ على الفقهاء أنهم يتساهلون في

هذه القضية رغم خطورتها حينما يفتون بأن مجرد تلفظ الزوج بحروف الطلاق، حتى وإن لم يكن القصد هو الطلاق بمعناه الحقيقي، يقع الطلاق فعلاً.

لقد آلان الرجل على وعي آلامل بروح الإسلام وفلسفته بشأن قضية خطيرة آلهذه، فالطلاق عمل يقصد به رفع قيد الزواج، وهذا يستوجب حتماً وجود نية حقيقية وأن إطلاق الحرية للزوج في الطلاق مهما آلان الزوج عابثاً أو غاضباً أمر يهدد آليان الأسرة والمجتمع. وقد يكون الطلاق أمام القاضي فرصة للتوفيق بين الزوجين حفاظاً على آليان الأسرة.

لقد جاءت آلتابات قاسم أمين في مجملها بمثابة ثورة فكرية واجتماعية تملك صاحبها صراحة في القول وشجاعة في التعبير عما آلان يؤمن به في العديد من القضايا التي رآها ميراثاً لا علاقة له بجوهر الإسلام، وآلان واعيا بمخاطر الإعلان عما يعتقد به حينما قال: "العار أن نظن في أنفسنا الكمال وننكر نقائصنا، وندعي أن عوائدنا هي أحسن العوائد".

إن ما آلتبه قاسم أمين في حاجة إلى إعادة قراءة دون إسقاط جوانب من فكره أو انتزاع جملة من منا وأخرى من هناك، لكي نقيم حكما لا يستهدف المصلحة بمعناها الواسع عملاً بالمقولة الفقهية الشهيرة: "يدور الإسلام حيث تدور المصلحة"، أو "يكمن شرع الله حيث تكمن مصلحة المسلمين".

وتأآيدًا على هذا المعنى فإن مجمل ما آتبه قاسم أمين في حاجة إلى إعادة نشر لكي يكون متاحًا أمام القارئ العربي، ليس بهدف تصيد فكرة من هنا أو جملة من هناك، وإنما آل الأعمال وفق سياقها، وهي على النحو التالي:

١. المصريون "ردًا على دوق دارآور"، (١٨٩٤).

٢. أسباب ونتائج وأخلاق مواعظ، (١٨٩٨).

٣. تحرير المرأة، (١٨٩٩).

٤. المرأة الجديدة، (١٩٠٠).

٥. آلمات، (١٩٠٨).